الأسد: أسرار نظام صامد

ما هو السر وراء صمود النظام السوري في وجه الانتفاضة الشعبية التي انطلقت منذ 15 آذار 2011، في أعقاب سقوط نظامي بن علي ومبارك؟ في الواقع، هناك عوامل عديدة توضح هذا الأداء الذي كلف ثمناً باهظاً بالفعل (أكثر من 8500 قتيل و50000 معتقل من نشطاء مشتبه بهم، كانوا تعرضوا لتعذيب وحشي...).

أنطوان بصبوص •

في الحقيقة، إن أحد المفاتيح المهمة لفهم هذه الظاهرة، هو بالتأكيد أهمية الإرث: إن حافظ الأسد (1970 – 2000)، والد بشار ومؤسس هذه السلالة الديكتاتورية، بلور نظامه على أساس مواجهة التهديد الوحيد الذي يحيط به ألا وهو الإطاحة به من قبل الأغلبية السنية. وفي الوقت نفسه، عمل حافظ الأسد على إخفاء لعبته بعناية، من خلال تبني شعارات موحدة.

وهكذا، من خلال استخلاص العبر من تاريخ العلويين المؤلم الذين خضعوا لقرون عدة إلى حالة من شبه العبودية على يد الأغلبية السنية التركية – السورية، عمل الأسد خطوة بخطوة، على تنظيم اختراق العلويين للجهاز العسكري السوري وحزب البعث، قبل أن يصبح مؤهلاً في إحكام السيطرة وتنصيب أنفسهم كمدافعين عن حقوق الفلسطينيين المنتهكة، وهي القضية التي تتعاطف معها الشعب السوري بشكل كبير. وباسم هذه "العروبة المقدسة"، استولى الأسد على السلطة واستعبد الشعب من خلال إنشاء أكثر من 15 جهازاً استخباراتياً مختلفاً في عمدة الوسط الداخلي وأكثر خانعيه وفاء.

وبالتالي، أمام تجربة التسونامي العربي، قام بشار الأسد بتطبيق عقيدة أبيه بكل وحشية، عازماً على تمديد هذا الثأر العلوي في سوريا، وبتدرج فتاكة

> «سيؤدي غياب رؤوس الأموال وتكلفة الحرب الى استنزاف الموارد الشحيحة، فبلد يعاني راعيه الايراني من الافلاس نفسه نتيجة العقوبات الدولية»

في سياق التحالف العضوي مع إيران، التي توصلت إلى بناء "هلال شيعي" بعد الإطاحة بصدام حسين في العام 2003 وعلى غرار الحمض النووي التابع لعائلة واحدة، فإن هذا التحالف العضوي يستند على الانتماء المشترك للطائفة الشيعية وفروعها وتكمن في لائحة هذا الإرث.

تبرز الخسارة المؤلمة بعيد اغتيال رفيق الحريري في العام 2005 (السيطرة السورية) على لبنان، التي كانت تشكل سلطة آل الأسد.

خلافاً لنظيريه التونسي والمصري اللذين جرفتهما موجات التسونامي أتى رد فعل بشار عنيفاً عبر استخدام الأساليب المعتمدة من قبل أبيه في العام 1982، عندما نفذ مجزرة في حماة، ذهب ضحيتها نحو الى 30000 شخص بصورة عشوائية. لم يكن الإنترنت موجوداً آنذاك ما منع اختراق جدار الصمت الذي فرضه الديكتاتور على بلاده. ومن خلال سعيه الى تمديد سلطة سلالته المؤلفة من أقلية صغيرة، عمل بشار على إثارة الانقسامات بين الطوائف السورية، وذلك لتبرير انسحاب عسكره نحو اللاذقية في حال فقد توازنه في دمشق، ولإنشاء دولة علوية تحت عنوان الدفاع عن طائفة مهددة من قبل السلفيين الذين ينظرون إليها كـ "بدعة".

في الواقع، يتقاسم "استراتيجية الهلال الشيعي" هذه التي سيتم على أنقاض سوريا، ثلاثة لاعبين كبار: طهران، التي تتمنى الحفاظ على "هلالها الشيعي" الذي يمر بدمشق وصولاً إلى "حزب الله" في لبنان. لن تكتفي في غياب بديل أفضل لجزء من الرصيد السوري الأكثر على صعيد الطائفة العلوية. يشار الى أن روسيا تسعى بالطريقة نفسها، فهي تملك قاعدة بحرية في طرطوس، المنطقة العلوية، كما أن روسيا تضمن ثروات آل الأسد وهي قلقة من صعود القوى الإسلامية على أنقاض الديكتاتوريات العربية. بعبارة أخرى، لا تريد موسكو أن تطال ثورة البلدان الإسلامية شعبها الخاص وشعوب البلدان الإسلامية المحيطة بها، وبالتالي، هي تسعى الى تطوير "حلقة تطويق" من قبل الإسلاميين الذين يقيمون علاقات جيدة مع الغربيين.

وأخيراً لأن إسرائيل تنظر بإيجابية الى التشكيك المزدوج لـ "الهلال الشيعي" الذي أرسى ثورة "حزب الله" على حدودها، وأيضاً الى تفكك سوريا التي ستتورط في خوض صراع سني – علوي حيث ستطالب الأقلية الكردية بحقوقها المنتهكة من قبل الجميع. ووفقاً لهذه الفرضية، سيؤدي ذلك الى قيام دولة علوية، من شأنها أن تكون نسخة طبق الأصل عن الدولة العبرية، ما تعطي الضوء الأخضر لإنشاء كيانات طائفية أو عرقية أخرى في المنطقة.

ومن خلال النظر في ردة فعل المسؤولين الإسرائيليين إزاء الأزمة السورية، لا بد أن يلفت انتباهنا حالة الانتظار التي يعيشونها. كما لو أن أجندة الحرب الأهلية السورية كانت خاضعة للصراع المنظور مع إيران ولتفاقم العداوة بين السنة والشيعة، والتي قد تؤدي الى تفكك سوريا وإنشاء دولة علوية.

في الحقيقة، إن نظام آل الأسد يتلاشى أمام أعيننا. ويمكن لانشقاقات كبيرة أن تسرع في انهياره، الى جانب عزم المجتمع الدولي على ذلك، من دون أن ننسى أثر الانهيار الاقتصادي. فالعقوبات الأوروبية حرمت (النظام) من عائداته النفطية في حين أن الحرب الأهلية شلت القطاع السياحي. وفي نهاية المطاف، سيؤدي غياب رؤوس الأموال وتكلفة الحرب الى استنزاف الموارد الشحيحة لبلد يعاني راعيه الإيراني من الإفلاس نفسه، نتيجة العقوبات الدولية.

ولكن، مما لا شك فيه أن التسونامي السوري يكون له ارتدادات كبيرة تتجاوز الحدود الجيوسياسية للبلاد. فسوريا بشار الأسد أصبحت مكشوفة على التدخلات الخارجية. إلا أن الشعب السوري، وأمام شراسة القوى، يخوض معركة شجاعة ووحيدة للتخلص من ديكتاتوره ■

• مدير مرصد الدول العربية.

Copyright 15/3/2012

اتفاق شراكة حصرية بين الجمهورية Lefigaro